الموسيقى والادب يلتقيان

بتهوفن وتلحيناته الخالدة

كان رجلٌ يسيرُ ذات مساء بين المزارع والحقول ، والفصلُ خريف والشفقُ يلقي بظلاله على الارض . وكان الرجلُ كئيباً كآبة المتفوّق الفقير الذي فرض على عبقريته احتمال المفاسد والمذلّة والهوان . وكان كئيباً كآبة القلب الكبير عاش على غمّ وحرمان ، ولم يجدْ بين بني الانسان روحاً تبادله عواطف الاعزاز والحنان . وكان كئيباً لاستشعاره بأنّ مصيبةً مجهولة ستدهمه عمّا قريب

كدّه التعبُ ، والمنازلُ في الخلاء أشعلت مصابيحها ذات النور المرتعش . فقصد إلى أقرب تلك المنازل يطلبُ الراحة قبل استئناف السير . ولحظ اهلُ الدار نظر الضيف موجهاً إلى البيانو المفتوح فدعوهُ الى التوقيع عليه لو كان له بالفنّ إلمام

جلس الغريب إلى البيانو وعزف . حتى إذا ما أحكمت أنامله الايقاعات الخاتمة نهض فرأى وجوه القاعدين حوله وقد لاحت عليها سماتُ الدهشة والتأثر ، وأبصر الشفاه منهم متحركةً فكاد يُدركُ ما ينطقون به . إلاّ انه لم يسمع اصواتهم فاستفهم عمّا يقولون

فردّوا عليه يكررون السؤال : « كثيراً ما حدّثونا عن موسيقيٍّ عظيم اسمهُ بتهوفن . وإن من يعزفُ مثلما عزفتَ ، ويخلقُ من أوتار النحاس الروحَ التي خلقتَ فذلك ، لابدّ أن يكون هو بتهوفن . أفأنت بتهوفن ؟ »

كانت الشفاهُ تتحرك والرجل يستجلي في تلك الوجوه آيات الروعة والخشوع . لكنّ الاصوات المخاطبة لم تصل اليه . وكان ثمّت ملئاً أنباع بتهوفن في صممه ، لأن التقادير قضت بأن يختم على سمعه طول الحياة .

خيبة وحياة من تتغذى عبقريته بلطمات والعبرات ، وفي أخر المكوث في حياته الخارجية يبدو أنه — شأن جميع الأفذاذ والمتفوقين في الشعور والادراك — كان منهلُ الآلام في قرارة ضميره وينبوع الحسرات والكروب كان يتفجَّر له من صميم وجدانه. وعن طريق التأثرات والانفعالات النفسية والهموم الشكاة اتصل بجوهر الحياة الشاملة . وفي محراب اللهفة والأسى راض فنه حتى امتلك منه الأعنة وجنى من غوره وعدائه غاية ما تنالهُ القدرةُ الانسانية في أعلى مراتبها وأسنى مجاليها. حتى غدا زعيم أركان الموسيقى بين المتقدمين والمتأخرين

ترى بماذا يشتري المرء السعادة والعافية والطمأنينة ؟ أبالفضل والتضحية والنبوغ والاحسان — كما يقولون ؟ لقد جمع كل ذلك في بيتهوفن وأشعه منه ؛ ولكنه كان من أشقى بني العالمين. وأخذت بوادر تلك العلة القاسية تتسرَّب الى سمعه وتتفاقم أمرها حتى أوصدت دونهُ عالم الأصوات . وكان يعذبه الفقر والمسؤولية والجهاد المتواصل ونكران الجيل ممن كان لهم غوثاً ، وتراكمت عليه الآلام والخيبات حتى زهد في حياة المدينة وعمد الى عزلة هايلجنشتاد قريباً وهو في الثانية والثلاثين . وهناك كتب «وصيته» الشهيرة في صيغة رسالة كانت في الراجح موجهة الى أخويه ، وقد وجدت بين أوراقه بعد وفاته وتاريخها ٦ اكتوبر ١٨٠٢ ، وهاك سطوراً من تلك الوصية البالغة في التأثير والحزن :

اعلموا انتم الذين ترمونني بالكراهة والمرارة ، وتجيزون عليَّ نعوت التوحش والشكاسة ؛ انكم في هذه التهم أظلم ما تكونون . انكم تجهلون الأسباب الخفية التي تضطرني الى الانفراد والظهور بمظهر الوحشة والنفور . ذلك ان قلبي وفكري متعطشان الى الرفق والحنوّ منذ نعومة أظفاري ، وبي توق يدفعني دواماً الى تخيل أشياء عظيمة نبيلة والسعي الى تحقيقها . ولكني فوق جميع آلامي ومصائبي نجمت بسمعي في علة لا أرتجي منها الشفاء ولا يزيدها جهل الأطباء الاّ تفاقماً . وعاماً بعد عام أرى آمالي في تهدُّم وانهيار . لقد جئت العالم بنفس حارة وروح متلظية ، ومزاج رقيق حسَّاس ، فصدمتني الأحوال واقسرتني على أن أسجن نفسي في العزلة وأن أفني حياتي في الوحدة والانزواء

... وسادة ! إنّ نظرك من الاعالي يتغلغلُ الى مجاهل ضميري وخفاياه وأنت تقلّي عليم ! انك تدري بأن هذا القلب المنتظر لم يخفق قط إلاّ بحبّ بني الانسان وبالرغبة في الخير والصلاح ! . . »

فن بيتهوفن

فن بيتهوفن غنيٌّ بتنوعهِ وتفرعهِ ، غناهُ بطرازه الفاخر ونفسهِ العالي . ولم تكن وفرة النتاج والابداع لتغضّ من جودة الاتقان وطرافة الابتكار . بل هو في كل فرع من ذلك الفن ، وفي كل غصنٍ من ذلك الفرع ، اهتدى الى حسٍّ جديدٍ يعالجهُ ومعنىً مستحدثٍ يشملهُ . مع انهُ لم يكن لهُ من منهل يرتاده غير هوّة نفسهِ ووحشة ماضيهِ . هناك يسترق السمع من هاتيك الاصوات السالفة و « يلمسها » شوقةً بعذوبة الذكرى ، ويعكف عليها يعالجها ويرعاها حتى ينال منها أقصى الاسرار ومنتهى الغايات . ويرسلها بعدُ لغوةً تترجم مرح الطفولة وسذاجة النغمة وأنس الصبوة . انما ينوح في قرارها صوتٌ يحدّث بأن اليوم غير الأمس ، وبأن الذكرى وليدة شوق استحال تحقيقهُ في عالم المحسوس فانطلق يستطلع بوادر الرجاء والامكان في عالم أسمى وأشرف ، على ان ذلك الانتحاب مهذّبٌ مثقف يتستر من نفسهِ بنفسهِ لا تشوههُ المرارة ولا تقلقهُ الحدّة . فاذا تفاجئك منهُ بغتة نفحاتٌ وفوراتٌ من الابتهاج والحبور فتحار من أي السبل نفذ الوجيب الى الانشاد . وطريقة بيتهوفن هذه في إغفال جراحهِ وهو في أشده عجيبة الفعل في النفس الموسيقية وكثيراً ما تجلب الدمع الى المآقي

لكل نغمة عنده معنى ، ولكل نبرة مناجاة ، واذا هدأت الأوتار وسكنت الآلات فسكوتٌ ملؤهُ عجيج القلوب وحفيف الاسرار واعلان الخفايا . ذلك ان بيتهوفن العالم في أصول الفن ، البارع في تخريج الانغام ونسجها وتفسيرها ، يخدمه المفكر في معاني الحوادث وتصاريف الاقدار ، والفنيّ الذي يلفّ الحقائق القاسية بدثار من الملاحة والرونق والبهاء ، والرجل المتوجع المنفعل بمقتضيات حياتهِ وبأعمال البشر ، والمتحمس العظيم للموسيقى الذي يرى مزاولتها

ضرباً من ضروب العبادة . وهو الذي عرّف فيه الموسيقى بما يلي :—

« الموسيقى وحيٌ يفوق كل علم ويسمو على كل حكمة . وهي الخدمة الوحيدة المجرّدة من الحسيات والمحسوسات ؛ التي تمضي بنا الى ملكوت المعرفة الربانية . ذلك الملكوت المحيط بالانسان في حياته هذه التي تمزقها المقاومة والنزاع ؛ والذي لا يجهر بخفاياه ويكشف عن كنوزه الاّ عن طريق هذا العامل الأثيريّ الخفاق المعروف باسم الموسيقى »

تلحيناته التسعة العظمى

وأبدع ما صنّف سمفونياته التسع التي وصفها ڤاجنر (هذا العظيم الآخر الذي يمكن اقتران اسمه باسم بتهوفن) بقوله « ان بتهوفن دوّن بها تاريخ الموسيقى وأدمج فيها جميع ألحان العالم » . والسمفونيا في اصطلاح اهلها قطعة موسيقية من صيغة السوناتا على انها أوفى بياناً وأجل اكتمالاً ، وذات بنود وأقسام تتفاوت بين الاسراع والتباطؤ لكل منها « رويّ » موسيقيّ خاص . وقد وضعت لتوقيع الاوركسترا الكبرى . ومع ان سمفونيات بتهوفن تعلن عواطف ومدركات مختلفة فهي كذلك سجلٌ لما كان يفكر فيه ويشعر به لدى تدوينها وانشائها

أما السمفونيا الاولى فعلاقتها باخواتها واهية . وليست في أصول الفنّ والاصطلاح الموسيقي والمضمون الفني لتظهر مقدرة مؤلفها . واما السمفونيا الثانية فعلى النقيض . اذ هي تتوهج بحرارة الشباب ونبل العواطف ، وتنشر أوهام الرجاء ورؤى الحياة ، وتجاهر بعقيدة المجد والحب والتضحية . . . فكم من استسلام في ثقة ، وكم من جولةٍ في اطمئنان ، وكم من احكام في ارتباط الانغام وتجاوزها ، وبحقٍّ دُعيت هذه السمفونيا انشودة الشباب الوطني الحالم المتسلم

وفي انتظام العدد تأتي السمفونيا الثالثة المدعوة بسمفونيا البطولة ، وفي حكايتها ما يوضح جانباً من خلق بتهوفن الابي ، رغم فقره ورغم حاجته . فقد باشر هذا التلحين بدعوة من برنادوت يومئذٍ سفير فرنسا في النمسا ، وتحت وقع اسم نابليون الذي كان يكبره الموسيقي ويرى فيه تمثل العبقرية الاكبر في

ذلك العصر ورجل التفوق الشخصي والديمقراطية الطالعة جعل لسمفونيته هذا العنوان «الى نابليون بونابرت . . . من لودفج ڤان بتهوفن» . وكان بونابرت اذ ذاك قنصلاً اول في الجمهورية الفرنسية الجديدة . وما خط بتهوفن آخر سطر منها في سنة ١٨٠٤ حتى ذاع الخبر بأنّ القائد العظيم قد جلس على عرش الملوك وتوّج امبراطوراً على الفرنسيس. والفتى الذي كان يعتقد بأن اقدام نابليون وبطولته نتيجة حبه لوطنه وسعيه في سبيل نشر الحرية في العالم — خاب ظنه عند تلقي هذا الخبر ، وحنق على أنانية القائد فمزق عنوان السمفونيا الأول واستبدله بآخر يدل على خيبته في الاعجاب به فدعاها « سمفونيا البطولة للاحتفاء بذكرى رجل عظيم » . ولم تُنشر الا سنة ١٨٠٦

وهي تمثل في ألحانها عواء جميع الغزاة والفاتحين منذ أول نشأتهم الى تغلبهم في وقائعهم الى ارتقائهم ذروة المجد بعد مرورهم بكل عذاب وكل تكاليف بيئة للمتفوقين عجز الخاملين وغرورهم . وفيها نبذة تستحمل «كمارش» جنائزي وكأن بها شيّع بتهوفن ذلك الرجل الذي غزا العالم ، الى لحده قبل ان ينطق مراحه في منفاه البعيد بسبعة عشر عاماً . وهي عميقة الحزن مترعة بالغمّ والحسرات الرائعة الهادئة . فلا يخفّ وقعها الرهيب إلاّ في النهاية اذ يرتفع البطل بالاوتار الى سماء الغبطة الدائمة

وقد أهدى السمفونيا الرابعة إلى جوليتا جيشار ، احدى النساء اللائي أحببنّ بحرارة في العواطف وطهر في الخيال . فوصف فيها الحبّ الذي تراكم على نفسه المعطوفة المحرومة ومقدار ما يشعر به من الحلاوة الرضية والسحر الفتّان وفي هذه السبيل الملتوية بين مرارة الحرمان ووعود الغرام نصل الى السمفونيا الخامسة ، أشهر اخواتها ومن أروعهنّ جمالاً . وضعها اثر تلقيه تلك الضربة الظالمة من يد القدر ونفيه عن عالم الاصوات والنبرات فقد جثمت نفسه عندئذٍ حول وقع القضاء وأخذ يتساءل عن غاية الحياة وسبب الآلام ومضى يتوغل من استفهام الى استفهام لعله يعثر على الجواب ... ومن ثم الجوّ الروحاني الخفيّ المخيم على تلك الالحان . وهو الذي حمل اهل الباطنية والثيوصوفية في الغرب على ضمّ تلك القطعة الى موسيقاهم فدعوها « سمفونيا الكارما » . والكارما

عدم ضرب من القنوط [نسخوا معناها كما نسخوا لفظها من العدمية] تمنى اتصال العلة بالمعلول والنتائج بالاسباب اتصالاً لا يقبل التوسط والانفصال

وقد وصف ثاجير هذا الطور من فن بتهوفن بما يلي : « صمم بتهوفن فلازمه انعزاله حياته هو الذي لم يكن يصله بالارض غير حاسة السمع ، فيها كان يعيش بعد انقطاعه عن كل ما عداها . والآن عند ما يمر هذا الحالم المأخوذ في شوارع فينا يحدق فيما حوله بعينيه الكبيرتين ، ماذا تراه يبصر من كل ذلك ، هو الذي يقطن ضمن جدران نفسه الحافلة بالاحلام والانغام ؟ أيمكن أن يكون في العالم موسيقي بلا سمع ؟ وهل في وسع انسان ان يتخيل رساماً بلا نظر ومصوراً بلا اصابع ولا يد ؟ على تلك الحال ودون ان تقلقه الآن جلبة الحياة ، ها هو ذا متفرغ للانصات الى ما يدوي ويترنم في صميم ذاكراته ، صاحلاً عالماً لا يخلقه له احد . عالم يعيش في رجل بصر الموسيقي وسمعه يتحولان الى بصيرة ترى الاشياء من الداخل . فيكلمه جوهر البرايا ويناجيه ضمير الوجود ويتكشف له ضياء الجمال الهادىء . الآن أصبح يفقه سر الغاب والنهر والروض والاثير الازرق ، والجماهير المبتهجة ، وغرام العشاق ، ونشيد الاطيار ، وسوابح الغيوم وزئير العاصفة ، ولذاذة الهناء . وفي هذا الوقت وفي هذا الصفاء العجيب تنتشر عبقريته في كل ما يتخيل وتتغلغل في كل ما يرى . فالقوة المولدة عنده في أشدها ، وجميع آلام الحياة ترتد عنها حسيرة بعد إنالتها وقوداً لزكوتها . لقد بسط في هذه السمفونيا الخامسة فكره المكنون وآلامه المبرحة ، وغبطة المظلوم ، وأحلامه المتناثرة بانكسار القلب والقنوط الكئيب . قصيدة وجيعة بل مرثاة قبل الموت لرجل يمتحنه مقدور عنيد ، وكل مغامرة في سبيل الخلاص باطلة . وحياة الرجل تنقضي يوماً بعد يوم بين التمرد والامتثال الا ان يده ما فتئت جامدة ، وجبينه عالية ، ووجهه في مصابه يقابل وجه الشمس ، وبها يختم هذه المصنفات التي لا مثيل لها ، بنشيد جبار للمجد والانتصار تتكسر فيه روح الملحن قيودها وتطير سنية متسلحة الى أجواز النعيم » .

أما السمفونيا السادسة فهي أنشودة الطبيعة . فا غنت الاوتار حياتها ،

ولا عزفت الآلات او رتلت الحناجر بمثل هذه الانغام الغضة لامتداح جمال الاشياء والبرايا والموجودات . بلاغة وأيُّ بلاغة في تلك الجمل المشبعة بالشذوب والرونق والرواء ، وتلك الصور الناطقة بصدق الحياة ، وذلك النور الرجراج وتلك العطور الفائحة من مواضع الانغام في منبسط الآفاق . وذلك السكون الرضي عند منعطفات الغياض وفي ظل الغصون . وذلك المرج الوادع المترامي الاطراف تحت سيول الالحان المصقولة كالمرايا ، المجلوَّة كالاشعة . وإذ يتمُّ وصف الطبيعة يأتي الانسان ، رجل الخلاء القويّ الجلود المؤمن ... فتفاجئهُ أهوال العاصفة ويشعر بالرعب والوحدة والفزع ، ثم لا يلبث ان تعود اليهِ الطمأنينة فينشد نشيد الشكران .

والسمفونيا السابعة مهداة الى الاهة الوزن والتناسق والانسجام الرامزة الى الاحتمال والصبر الباسم عند تراكم الاوصاب . إنك لتسمع في الاوركسترا شهيقاً وزفيراً وتكاد تلمس العبرات المتناثرة ، ثم تتجمع الالحان في أغنية حزينة تقبض على القلب بعقابيل النقمة والحسرة والجوى . كأنما الانسانية كلها تقاسي دمقاً ونكالاً في تسلقها سبيلاً متعرجاً شائكاً كلُّ خطوة فيهِ مرحلة عذاب . ولكنها لا تفقد الايمان وتظلُّ متطلعة الى الانتصار في النهاية وتتمثل طيفهُ يلمع بعيداً كوميض الرجاء

والسمفونيا الثامنة أنشودة البشاشة والرضا . لان بتهوفن يرى ان الرجل الخالص النية الصافي الطوية اذا هو استملك طمأنينة النفس يظل بشوشاً راضياً مهما يلقَ من الحياة ومن الناس . وفي هذا التلحين كثير من الحلاوة الرائقة والدلال اللطيف حتى لتخالهُ أغنية ينشدها الاطفال وهم يقطفون الازهار في صباح ربيع بهيّ .

وهكذا من أعجوبة الى أعجوبة ومن تحفة الى تحفة ينتهي بتهوفن الى تصنيفه الفريد الأعظم الذي قال فاجنر على ذكره « أليس منا غروراً وسماجة ان نعالج تلحين السمفونيا مع علمنا ان منتهى ذلك أوصلهُ بتهوفن في السمفونيا التاسعة وهي البحر الفيّاح بهولها وجمالها . وكل ما نلحنهُ بعدها فأقاهُ عيّ امام تلاطم الرياح وهدير الامواج »

هذه السمفونيا التاسعة من الأهمية بحيث أفردها الناقد الموسيقي « ماتيو باروسو » كتاباً تاماً في ما يزيد على مائتي صفحة . ففي الاوضاع الاصولية وفي بلاغة البيان وعظمة الوحي جميعاً ارتفع بتهوفن الى علو شاهق باذخ لم يداينه قط مظهر من أيّ المظاهر الفنية . وأفرغ فيها من المدركات الروحية ونزعة الانسان الى الاتصال بالله وتعرُّف الروح العليا الشاملة حتى ان السامع ليعتريه تحرانٌ ويتناوبه الخوفُ والوجل كأنما هو وقف عند عتبات الغيوب ليطلع على ما وراء هذه الارض من الاسرار الخفية الباهظة . ويخيل اليك ان مئات الاصوات والمنشدين والعازفين يتقاطرون جماعات وأفراداً من أقطاب الارض السحيقة ليتلاقوا ويتعاونوا على ارسال نشيد واحد عظيم ، هو نشيد الاطمئنان عند الفرح والثقة حيال الرهبة . لان هذه القطعة الخطيرة نشيد الفرح الشريف العالي نشيد الاستئناس بالكائنات المجهولة والاستسلام للارواح النقية القادرة

***

هذه صورة مشبة من بتهوفن الذي لا تجيد تصويره الا مآثره . هو اكبر موسيقيّ في التاريخ وليس ليعلو عليه أحدٌ وجلّ ما يمكن ، هو ان يرتفع الى سماء عبقري آخر أو عبقريان اثنان من بعض وجوه فنهما ، فهو حقيق بكل حفاوة جدير بكل اكرام واعجاب . وحسبهُ جبرليت تاين الناقد والمؤرخ الفرنسي ، رابع الاعمدة العظيمة التي تقوم عليها قبّة الفنّ . أما الثلاثة الآخرون فهوميرس اليوناني ، وميكلانجلو الطلياني ، وشكسبير الانكليزي

هذا هو بتهوفن . فلتعزف المعازف ، ولتنفد الاجواق ، وليخطب الخطباء وليكتب الكاتبون ، فشيء من ذلك لن ينتهي اليه صداهُ عن طريق السمع الانساني . لما روحه التي غاصت في تلك الاعماق البعيدة من الألم الأصمّ والحرمان الأبكم ثم حلّقت بعبقريتها وفنها في تلك الاجواء العالية فاذا عساها تصنع إذ تشهد مظاهر التكريم والتعظيم ؟ (١)

انها تذيب ما تشعر به في ابتسامة صغيرة بطيئة ... ابتسامة العبقريّ الذي خبر الناس والحياة فتألّم ، وتحوّل الى منق نفسه فأبدع

(١) الاحتفال بانقضاء مائة سنة على وفاته سنة ١٨٢٧